قوائم المحتويات متاحة على ASJP المنصة الجزائرية للمجلات العلمية
الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية
الصفحة الرئيسية للمجلة: www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/552

تجليّات المرأة في المتخيّل الصّوفي
ـالمغرب الأوسط أنموذجاـ

The manifestations of women in Sufism visions
-Middle Maghreb a model-

عتيقة مصطفى [1] ،*
[1] جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر.

Key words:
Sufism
Middle Morocco
women
religious
culturally
history.

Abstract

The Middle Morocco is one of the most culturally rich countries in the world, The Sufism is considered as an essential part of culturally, Most of the people in middle Morocco are the followers and murids of Sufism.

Sufism has shaped Algerian society and politics for much of country's history, had left a prevailing impact on Middle Morocco religious ,cultural and social life in this central region of Maghreb.

This article explores the manifestation of women in Sufism visions to identify the dynamics within Middle Morocco's Sufi tradition and traces women's different styles of participation and leadership.

معلومات المقال
تاريخ المقال:
الإرسال :2024-03-12
القبول : 2024-05-19

الكلمات المفتاحية:
التصوف
المغرب الأوسط
المرأة
الدين
الثقافة
التاريخ.

ملخص

يعد المغرب الأوسط من أهم الأقطار التي عرفت بتنوع ثقافاتها في العالم، ويعتبر التصوف أحد أقسام هذا التنوع الثقافي، فقسم كبير من سكان المغرب الأوسط كانوا من أتباع ومريدي التصوف.

فقد وسم التصوف المجتمع والسياسة في الجزائر لقرون عديدة، وكان له التّأثير الواضح في مجال الدّين،الثّقافة والمجال الاجتماعي داخل هذا القطر المركزي في بلاد المغرب.

إنّ الغاية من هذا المقال هو بيان تجليّات رمز المرأة في المتخيّل الصّوفي، والتعرف على الدّينماكية بين التصوف والمرأة في المغرب الأوسط من حيث مظاهر ممارستها.

* Corresponding author at : Ibn Khaldoun University of Tiaret, ALGERIA.
Email : bahdja.samira@yahoo.com

1. مقدمة

لقد عرفت بلاد المغرب الإسلامي عموما والمغرب الأوسط بشكل خاص انتشار ظاهرة التصوف،وقد ساهمت كغيرها من الأقطار في إثراء التّجربة الصّوفية، وقد ارتبط ظهور التصوف بالمغرب الإسلامي بعوامل عدّة أهمها تأثير المشرق والنّهضة المالكية في القيروان منذ القرن الثّالث الهجري في مواجهة الشّيعة، تأثير أفكار أبي حامد الغزالي(ت505ه) الصّوفية إضافة إلى الهجرة الأندلسية.

وقد مرّ التصوّف في انتشاره بمرحلتين أساسيتين: الأولى مرحلة التصوّف النّخبوي، والتي امتدت إلى القرن 08ه من خلال ظهور شخصيات صوفية كان أهمّها أبا مدين شعيب الإشبيلي وأبو الحسن الشّاذلي وأبو العبّاس السّبتي،فحين مثّل التصوّف الفلسفي ابن عريف وأبو بكر بن عربي وأبو الحسن الشّشتري(668ه)، أما المرحلة الثّانية فتتمثل في التصوّف الشّعبي خلال القرن 10ه/16م أين أصبح التصوّف يستوعب مختلف الفئات الاجتماعية ومن مستويات ثقافية متنوعة (**بن حيدة**، 2011/2010، **صفحة** 17).

والحقيقة أنّ الحركة الصّوفية في المغرب لم تحظ بالدّراسة الكافية كما هو الشّأن بالنسبة للتصوّف في المشرق وخاصة ما تعلّق بتصوف النّساء، فمشاركة المرأة كانت متميزة منذ العقود الأولى من تاريخ المسلمين،والإسلام بريئ من تهميشها أو من حرمانها فرصة المشاركة في صنع ملامح المشهد الثّقافي في جانبه العلمي،الفكري والإنساني،ولقد تجلّى دور المرأة منذ البداية في مجال الفقه والحديث والرّواية،كماجلست للتّعليم،وقد بنيت بفضل كثير من النّساء المدارس والمساجد والمكتبات العامة.

إنّ الإشكالية الأساسية التي يطرحها موضوع الدّراسة مرتبط بتقييم مكانة المرأة في المغرب الأوسط ضمن منظومة التصوف وخاصة أنّ الكثير من الكتابات الإستشراقية والعربية الحديثة تظهر المرأة كعنصر مجهول ومهمّش في تاريخ المجتمعات المسلمة.

كذلك يثير موضوع المرأة الكثير من الجدل وخاصة ما تعلّق بمكانتها في الفكر الإسلامي،سواء ضمن الفكر السّلفي،الفكر الإخواني ثم الفكر الصّوفي.

إنّ تجليّات المرأة الصّوفية كانت حاضرة ضمن موسوعات تاريخ المسلمين "كتاريخ بغداد" للخطيب البغدادي "وتاريخ دمشق" لابن عساكر،وتضمنتها كتب الطّبقات والتّراجم كسير أعلام النّبلاء للذّهبي،وصفة الصّفوة لابن الجوزي، وذكر النّسوة المتعبّدات الصّوفيات للسّلمي...الخ.

وقد ظهرت عديد الكتب بالعربية والأجنبية تؤكّد حضور المرأة في الفضاء الصّوفي سواء المقيمات في بيوت صوفية بصحبة قامات روحية عالية،والسّائحات العابدات الزّاهدات،والمؤدّبات المربيات،وممن تصدّر لإنشاء الكتب بالإملاء،أو الممثلات لشيخ الطريقة ضمن المحيط النّسائي.

لكن في بلاد المغرب اهتمت المدونة الصّوفية بسيرة المتصوفة من الرّجال وأغفلت النّساء،وقد حاول علاء الأسود استدراك هذا التّقصير في كتابه "النّساء الصّالحات في المدوّنة المنقبية لبلاد المغرب مع بداية القرن 5ه/11م"، حيث تناول التّجربة الصّوفية للمرأة المغاربية،وعلى مستوى الكتابات الغربية اهتمت الكاتبة الألمانية "آنا ماري شيمل" بتصوف المرأة في كتابها"العنصر النّسائي في التصوف الإسلامي".

لقد لمع اسم السّيدة رابعة العدوية(100ه-180ه)،وأصبحت قصائدها في الحب الإلهي ذات شهرة عالمية،وتأثر بها كبار شعراء الصّوفية من أمثال جلال الدّين الرّومي وفريد الدّين العطّار النيسابوري والشّيخ محي الدّين ابن عربي،والسّيدة فاطمة بنت المثنّى(ق06ه)، والتي خدمها بنفسه شيخ الصّوفية محي الدّين بن عربي(560ه-683ه)، وأقرّ بدورها في إثراء تاريخ التّربية الصّوفية،والسّت عجم بنت النّفيس البغدادية (حية 686ه)،والتي أملت على زوجها ثلاثة كتب منها شرح مشاهد الأسرار القدسية(وهو كتاب لابن عربي). والسّيدة زينب القاسمية (1850م-1904م)، وهي سيدة صوفية عالمة تولّت مشيخة الزّاوية التي أنشأها والدها الشّيخ محمّد بن أبي القاسم(ت: 1897م)،مؤسس الطّريقة الرّحمانية.

نطرح من خلال هذه المداخلة موضوعا ذا أهمية حول صورة المرأة في المتخيّل الصّوفي،ونصيبها من الممارسة الصّوفية في المغرب الأوسط،كما يلزمنا هذا الموضوع بتناول بعض الأسئلة الفرعية:

- ما هو التطور الذّي طرأ على المتصوّفات في المغرب الأوسط من مرحلة تاريخية إلى أخرى؟.

- ما هي أسباب غياب مدارس علم للمتصوّفات على غرار ما خلفه الرّجال المتصوفة؟.

2. رمزية المرأة في المتخيّل الصّوفي

قبل الحديث عن صورة المرأة في المتخيّل الصوفي لابد من تحديد بعض المفاهيم والمصطلحات وخاصة مصطلح "المتخيّل" فلقد ورد في لسان العرب لابن منظور "خال الشّيئ يخال خيلا،وخيلة وخالا وخيلا وخيلانا ومخالة فتخيّل وخيلولة:أي ظنه"(**ابن منظور**، 2000، **صفحة** 193)، ولقد شكل المتخيّل عند نجيب محفوظ قاعدة ثورية واستعارية رمزية وتخيلية تشمل معان متعدّدة كالتّأويل والتّحويل.بحيث لا يتحدّد المتخيّل من خلالا مفاهيم تجريدية والتّي تسعى لفهم العالم والإنسان. واصطلاحا يمكن استعمال المصطلح في تحديد مكان ما يحتوي على مجموعة من الخصائص تمثل صور متخيلة. وعند الغرب يتم تفسير المصطلح كما جاء لدى إدجار موران"Edgar-Morin" ضمن الازدواجية الأساسية للكائن البشري الذّي هو في نفس الوقت كائن واقعي وحقيقي وكائن تخيّلي ذلك لأن حقيقة الإنسان في جزء كبير منها تخيلية (**البيوري**، **د.ت**، **صفحة** 34).

أما مصطلح التصوّف،فهناك مجموعة من التّعاريف الاصطلاحية قد نلخصها في سمو خلقي للنّفس البشرية بغية تحقيق الفضائل الإنسانية.ونخلص إلى مفهوم المتخيّل الصوفي وهو جريان المعاني مجرى المحسوسات في الصوّر التي تقبل التجزء والانقسام والقلّة والكثرة.وجعل محل ذلك حضرة الخيال (**لعبيدي** , 2017,**صفحة**414). يتجسد المتخيل الصّوفي معاني روحية تتوحد فيها العلاقات نتيجة التّدبير الإلهي.

فحين يشمل الخطاب الصّوفي النّظام الفكري العرفاني الذّي يقوم على المكاشفة والاستنطاق والتّأويل في دراسة القرآن والسنة من خلال خطاب يصاغ نثرا وشعرا،لقد ارتكز الخطاب الصّوفي على النّص الدّيني،ولا يمكن وضع مواقف الصّوفية إزاء المرأة في خانة واحدة،ذلك أنّ صورة المرأة في التصوّف الفلسفي تختلف عن صورتها في التصوّف الأخلاقي،حيث ظهر التصوف السني-الأخلاقي في القرن2ه، يمارسه مجموعة من الزّهاد يحترمون قواعد الشّرع الإسلامي من قرآن وسنة وإجماع،ومن أشهر كتب التّجربة الصوفية نذكر القشيري في رسالته والطّوسي في كتابه اللّمع،أما التصوف الفلسفي فقد ظهر أيضا خلال القرن 2ه خلال حكم الدولة العباسية مع العرب المسلمين مع مجموعة من الشّعوب (الفرس،الروم،الهنود) وخاصة مع ازدهار حركة التّرجمة.ورغم أنّ التصوّف حاول التعامل مع المرأة بايجابية لكن يبقى معظم التيار الصّوفي خاضع للرؤية الأخلاقية الفقهية فيما يخص المرأة ودخولها عالم التصوّف.

عند الحديث عن تجربة الخطاب الصّوفي الفلسفي نتحدث عن ابن عربي(ت638ه/1241م) الذّي أقرّ بفكرة غياب الاختلاف بين المرأة والرّجل على المستوى الرّمزي.ويعتبر أنّ الذّكورة والأنوثة الطبيعيين مجرّد عرضين بالنسبة إلى الإنسان،ولا يمكن اعتبارهما معياريين للانتماء للإنسانية أوالانحراف عنها (**ابن عربي**، **ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق**، 1313**هـ**، **صفحة** 03)، استعمل ابن عربي قضية المرأة في سبيل نصرة قضيته المتمثلة في الدّفاع عن مقولته أنّ حب النّساء هو صميم الحب الإلهي(**براضة نزهة**، 2008، **صفحة** 30).

لكي تنكشف رمزية المرأة في الخطاب الصّوفي لابد من الإشارة إلى مقولة الحب،ويميز ابن عربي بين ثلاث مراتب:حب طبيعي وحب العوام غايته الاتحاد في الرّوح الحيواني،حب روحاني نفسي،وحب إلهي وهو حب الله للعبد وحب العبد لربه(**ابن عربي**، **الفتوحات المكية**، **د.ت**، **صفحة** 111، ج2)، ويعتقد ابن عربي أنّ الحب الإنساني هو الخبرة الأولى التي لابد أن يتأسس عليها الحب الإلهي، ويعتقد البعض أنّ المرأة عند المتصوّف معبر للتسامي.

وفي سياق التّجربة الصّوفية في نظرتها للمرأة،فالمرأة صورتها الوجودية هي تجسيد للجمال الكوني، وليست مجرد حسن يخضع لمنطق الرّغبة والمتعة الجسدية،وفي هذا السياق يذكر ابن عربي: "وليس في العالم المخلوق أعظم قوّة من المرأة لسرّ لا يعرفه إلا من عرف قيم وجد العالم وبأي حركة أوجده الحق تعالى" (**ابن عربي**، **الفتوحات المكية**، **د.ت**، **صفحة** 446)، ومن هذا المنظور تصبح التّجربة الصّوفية للمرأة المرتبطة بطبيعة تكوينها العاطفي أكثر عمقا وحساسية كما جسدتها رابعة العدوية (**بوبريك**، 2007، **صفحة** 150).

بالنسبة للصّوفية يتعلق الأمر بإعادة النّظر في علاقة الإنسان بمسألة الأنوثة كمسألة دينية ثقافية أكثر منها اجتماعية،لذلك أصبحت المرأة في النّصوص الصّوفية المظهر الأعلى للحياة بل هي مبدأ الحياة الإنسانية (**أرزازي**، 2016، **صفحة** 08).

على مستوى التصوّف الأخلاقي وهو سمة الحقل الصّوفي في بلاد المغرب والذي ظل يستجيب للتصورات الفقهية(المرأة رمز فتنة وغواية)،وعلى هذا الأساس فهي تشكل قوّة مضادّة لبلوغ الولاية والصّلاح،وبلغ الأمر ببعض الصّوفية إلى اعتبار الزّواج عائقا أمام بلوغ التّرقي (**البادیسي**، 1993، **صفحة** 86)، وفي هذا المجال لابد على الباحث من الإجابة على سؤال جوهري يتعلق بتأثير أراء الإمام أبي حامد الغزالي وخاصة كتابه "إحياء علوم الدّين"في البيئة الفكرية والاجتماعية وخاصة حول موضوع المرأة،علما أنّ كتابات الغزالي كانت ذات تأثير في بلاد المغرب الأوسط حيث قام أبو علي الحسن بن علي المسيلي المتوفي أواخر القرن 06ه/12م بنسخ كتاب على منوال كتاب إحياء الدين بعنوان " التفكّر فيما تشتمل عليه السّور والآيات من المبادئ والغايات"،وقد لقّب بأبي حامد الصّغير.

والمرأة عند الغزالي عنوان الكيد والغدر والغواية،وقد ورد في كتابه "التّبر المسبوك في نصائح الملوك" أنه كل ما أصاب الرّجل من البلاء والهلاك والمحن فبسبب النّساء.

لقد جسد هذا الاتجاه أبو مدين شعيب (ت594/1198م) وهو من الشّخصيات المؤسسة للصّوفية في الأندلس وبلاد المغرب، وقد انقسمت نظرته للنّساء إلى قسمين:

النّظرة الأولى:لا يرى من الخلق غير وجه الله سبحانه وتعالى، وعليه لا يضرّه صحبة النّساء،ومن هذا المنطلق نجد من أصحاب أبا مدين الصّالحة فاطمة الأندلسية (ت خلال القرن 7ه/13م) وكانت تنتقل من قصر كتامة إلى فاس بغية حضور مجالس سماعه(**ابن الزيات**، 1997، **صفحة** 332).

النّظرة الثانية: الخوف من اتباع الهوى،لذلك حذّر من صحبة النّساء خوفا على إيمان القلب.

وبحلول القرن السادس الهجري أنشأ قصيدة نونية حافلة بالتّلويحات والرّموز الغزلية،وفي قصيدته تمتزج الرّموز الغزلية بالرّموز الخمرية. ومن هذه القصيدة قوله:

تقول ناس قد تملكّه الهوى أجل لست في ليلي بأوّل من جنّا

وإنّي كما شاء الغرام موحّد وإن ملت تمويها إلى الروضة الغنّا

فحتى يعبّر الصوفي عمّا يخالجه من حب إلهي فقد توسّل برمز المرأة باعتبارها أكمل تجلّ للألوهية،وانطلاقا من هذا النّسق العرفاني تصبح المرأة رمزا للتّعبير عن مواجيد المحبة الإلهية. وقد أحصى الدّكتور عمر موسى باشا حوالي" 15" امرأة ذكرها عفيف الدّين التلمساني تصريحا وتلميحا ونسبة (**نصراوي**، 2011/2010، **صفحة** 86).

3. جوانب من مساهمة المرأة الصّوفية في المغرب الأوسط

ممّا لا شك فيه أنّ" المرأة قد نالت نصيبا محترما على صعيد الخطاب الصّوفي من خلال كتابات الكثير من أقطاب الصّوفية من أمثال ابن عربي،لكن على صعيد الممارسة ظلّت المرأة على غرار مختلف الفرق الصّوفية في العالم الإسلامي بعيدة عن عن الأدوار المنوطة بالرّجال،رغم ظهور بعض النّساء -في ظروف استثنائية- في أدوار علمية ودينية في المغرب العربي أمثال "لالة عائشة المنوبية في تونس" و"ولالة ستي" في تلمسان،و"لالة ميمونة في فاس" و "لالة مغنية في غرب الجزائر".

وسيتم تقييم نصيب المرأة من الممارسة الصّوفية في المغرب الأوسط من خلال ثلاثة مؤشّرات: المؤشّر الأول حول العوامل المساعدة على ظهور التصوف النّسائي،المؤشّر الثاني حول نماذج من النّساء المتصوفات والثّالث حول مظاهر الممارسة:

1.3. العوامل المساعدة على التصوف النّسائي

- الإكراه الاجتماعي

يتجلى واضحا من خلال بعض النّوازل الواردة في كتاب المعيار للونشريسي أنّ المرأة تبوأت مكانة رفيعة وسط أسرتها حيث حرص الأباء على حياة بناتهم قبل وبعد الزّواج (**بكوش**,2022,**صفحة** 302). ولكنها أيضا عانت من مظاهر الإكراه الاجتماعي في المغرب الأوسط،وخاصة أرباب الأسر وشيوخ القبائل والفقهاء الذّين كانوا يحدّون من نشاط النّساء بما في ذلك مجال التصوّف،وكان من سمات المغرب الأوسط في العصر الوسيط هيمنة الرّجال على مظاهر الحياة الدّينية والثقافية (**بونابي، الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين** 8-9ه/14-15م (**رسالة دكتوراة**)، 2009/2008، **صفحة** 397)، وتشير كتب النّوازل إلى أشكال الإكراه الاجتماعي المسلّط على النّساء،حيث بيّنت نوازل أحمد الونشريسي حرمان المرأة من ميراثها في المجتمعات القبلية،وحرّم عليها حضور حلقات الذّكر والرّقص والغناء،والاجتماع بالرّجال ليلة الجمعة وعاشوراء.لذلك أدركت المرأة أهمية مجال التصوف في حمايتها من أشكال الإكراه الاجتماعي،حيث فرّت -على سبيل المثال- المرأة التي أكرهت على الزّواج إلى الزاوية،واحتمت بها.

وفعلا فقد فتح التصوف للمرأة مجالا لتثبت وجودها وتحرّرها من أشكال الإكراه الاجتماعي،وخروجها من التزامات الفقهاء الذّين سلّم بعضهم بجواز شهادة الصّالحات من النّساء (**نويهض**، 1980، **صفحة** 270).

- دور البيوتات الصّوفية

تتفق معظم الدّراسات أنّ ظاهرة التصوف النّسائي نشأت ضمن "البيوتات الصّوفية" والتي كان لها الدّور الواضح في انخراط النّساء في التصوف وخاصة ضمن الطريقتين المدينية والشّاذلية،فقد أدّى وجود المرأة في البيت الصّوفي إلى تولد حالة الانتماء الصّوفي،ضمن مستوى من الزّهد والتقشف والمجاهدات عبّر عنه كل من بن مرزوق وابن القنفد القسنطيني بمصطلح "الصّلاح".

حيث ساهمت البيوتات الصّوفية في تلمسان في تخريج عدد من المتصوفات،ومن أشهر هذه البيوتات نذكر "بيت المرازقة" حيث انتقل جدّهم مرزوق من القيروان إلى تلمسان أيّام حصار المرابطين لها سنة 472ه/ 1079م،وقد تجلّت معالم الصّلاح والتصوف في هذه الأسرة خاصة خلال ق6ه/12م،حيث ظهر الصّوفي أبو عبد الله محمّد بن أبي بكر ابن مرزوق 629ه-861ه/1231م-1282م،والذّي اشتغل بالمجاهدات وقراءة كتب التصوف خاصة كتاب "سراج المريدين" للقاضي أبي بكر بن العربي (ت543ه/1148م)،وإليه يعود الفضل في وضع بيت المرازقة على خط الطريقة المدينية. وفي تلمسان اشتهر أيضا بيت"بني النّجار" والذّين كانت تربطهم علاقة مصاهرة مع بيت "المرازقة".

- التّعليم

سجّل تاريخ الولاية والصّلاح في المغرب الأوسط حكاية العديد من النّساء،سطع نجمهن في مجال الولاية والصّلاح،وقد كان تعليم المرأة من العوامل الأساسية رغم أنّ المصادر كانت شحيحة في ذكر أمثلة عن البنات اللاّئي كنّ يدرسن في الكتّاب والمدارس،حيث حظيت المرأة التّلمسانية بمكانة قيمة وكانت بعض النّساء تأخذ العلم عن أهلها كحفصة بنت مرزوق الحفيد وزينب بنت الشّيخ الصّالح أبي إسحاق إبراهيم بن محمّد الدلاليلي.

- دور رموز التصوف في تجاوز الخطاب السّلبي حول المرأة

وقد اخترنا كنموذج المرأة في تصوف عبد الرّحمن الثّعالبي (786ه/1384م-875ه/1195م)،حيث حاول الثّعالبي فيما يخص موضوع "المرأة والولاية " التّوفيق بين الظّاهر العملي والباطن الوجداني للولاية،ففي كتابه"حقيقة التّوحيد" عرّف الولي الصّالح أنه العارف بالله تعالى ورسوله،المواظب على الطاعة،المجتنب للمعاصي،وبحكم استشهاده بالقصص القرآني (قصة أم موسى ومريم بنت عمران)،واستنادا إلى الكثير من الشواهد القرآنية(آل عمران،الأحزاب)خلص إلى فكرة أنّ النساء والرّجال في الولاية على حد سواء.

وحول موضوع "المرأة والكرامات"فلقد خصص الثعالبي للصالحات حظا وافرا من الكرامات المنقولة في كتابه"رياض الصّالحين" و"الإرشاد لما فيه مصالح العباد".

ومع ذلك واجه التصوف النّسائي في المغرب الأوسط الكثير من العقبات،كما لم تحظ المرأة في المغرب الأوسط بالمساعدة في مجال التصوف على عكس المشرق والذّي شهد تشييد أماكن تجتمع فيها النّساء وتديرها النّساء، حيث شيّد الخليفة المستعصم العبّاسي (ت 656ه/1258م) رباطا للنساء سمي"رباط الشّط". وكانت المبادرة الوحيدة تلك التي قام بها الصّوفي "أبو عبد الله محمّد بن أبي بكر بن مرزوق"(ت681ه/1282م)، حين أسكن في دويرة ملحقة بدار بعض النّساء الصّالحات وجعل نفقتهن على نفقته، وكان يزورهن كل ليلة ويتذاكر معهن في أمور الدّين والتصوف.

ويبدو أنّ غياب المرأة المتصوفة بشكل واضح كان بسبب طغيان التصوف السني،حيث كانت علاقة المتصوفة جيدة بالفقهاء على خلاف ما عرفته بلاد المشرق الإسلامي،فصوفية المغرب الأوسط لم يرتكبوا ما يخالف الشّريعة أويثير الفقهاء. فضلا عن ذلك لم يقم المؤرّخون ورواة التراجم المحليين بتدوين معلومات حول النّساء المتصوفات التزاما بعادات المجتمع التّقليدي.

2.3. نماذج من النّساء المتصوفات في المغرب الأوسط

حضرت المرأة -في بعض النّصوص المناقبية- في شخصيات صوفيات وصالحات وليات،وزاهدات وعابدات ومجذوبات. وقد أكدت كتب المناقب والتّراجم أنّ الكثير من المدن المغربية اشتهرت بالصّالحات،وقد أورد بن الزّيات (ت 617ه/1220م) في كتابه "التشوّف" العديد من الصّالحات:

عائشة بنت أحمد بن الحسن المديوني(ت أواخر ق 8ه/13م): حفيدة الشيخ ابن مرزوق ،ألفت مجموعة من الأدعية،وكانت كثيرة القراءة والمطالعة.

رقية بنت عبد القوي بن محمّد البجائي(ت874ه/1470م): ووهي امرأة صالحة من بجاية برعت في علم الحديث (**ابن مرزوق**، 2008، **صفحة** 149)

وقد سمعت الكثير من عدّة حفاّظ،وأجاز لها الزّين المراغي والحافظ العراقيوالنّور الهيثمي،وأجازت للسّخاوي،توفيت بمكة المكرمة.

زينب بنت الشّيخ الصالح أبي إسحاق ابراهيم محمّد الدلايلي، والذّي بنى دار المعرفة واشتغل بقراءة الفقه وعلم الحديث،كما اشتغل بكتب التصوف وانقطع للعبادة،وكانت زينب من الصّالحات ورثت عن أبيها الجاه والعلم(**ابن الزيات**، 1997، **صفحة** 112).

مؤمنة التلمسانية (ت خلال القرن 9ه/15م): حيث يذكر صاحب "أنس الفقير": "رأيت منهم بفاس المرأة الصّالحة مؤمنة التلمسانية وتبركت بها،وما زالت على ما تقرّر عندي تخصّني بالدعاء..."،وقد انتقلت مؤمنة التّلمسانية إلى فاس لطلب العلم ومجالسة كبار العلماء من أمثال أبي عبد الله المقرّي وأبي العبّاس السّبتي (ت601ه/1204م) وابن قنفد وغيرهم، والخوض معهم في مسائل شرعية (**فيلالي**، 2002، **صفحة**296، ج1)، شرعية وكان الشّيخ الصّالح علي ابن عبد الوهاب يكتب لها لوحها ويبادر به (**ابن مرزوق**، 2008، **صفحة** 168).

أم بن زكري: وأحمد بن محمد الزّكري فقيه اشتغل بالتّعليم والتّدريس، ومن مؤلفاته"بغية الطالب ومنظومته الكبرى"في علم الكلام.

فاطمة بنت أبي زيد النّجار: وهي من الصّالحات (**ابن مرزوق**، 2008، **صفحة** 149).

عائشة بنت عبد الله الكتّاني:من الصّالحات، ورعة، ملازمة للعبادة،حبّة للخلوة (**ابن مرزوق**، 2008، **صفحة** 298).

الصّالحة" ستم" بنت الشّيخ أبي علي حسين بن الجلاب العالم الفقيه صاحب القلم والمال.

أم الفتح: وهي أم خال الخطيب بن مرزوق،وكانت من الصّالحات،حجّت وتوجهت إلى بيت المقدس أين توفيت حوالي 724ه/1324م،ولها الفضل في تربية الخطيب بن مرزوق والذّي حج معها وعمره لا يتعدى 12 سنة.

-مموكة الصّوفي"علي التالوت"المدعوة "سعيدة" بتلمسان، وكانت تقول بالمرائي الصّوفية(**ابن قنفد**، 1995، **صفحة** 80).

وقد سلكت المرأة بتلمسان طريق التصوفوتياراته ومناهجه، ويذكر صاحب المناقب مجموعة من النساء الصّالحات كنّ زوجات لوالد ابن مرزوق الخطيب دون ذكر أسمائهن (**بونابي**، 2017، **صفحة** 139)، وقد عملت المرأة المتصوفة بتلمسان لكسبقوت العيش ومثال ذلك زوجة أبو عبد الله محمّد بن أبي بكربن مرزوق حيث ذكر شيخها أبو العبّاسبن القطان أنها كانتملازمة للعبادةمع زوجها مقتصرة على ما يقتصر عليه من القوت ،والصّالحة أمية بنت يغمروسن (633ه-681ه /1235م-1282م)من مدينة تلمسان(**الونشريسي**، 1981، **صفحة** 172، ج6).

كما خلّدت الذّاكرة الشّعبية أسماء نساء لم يتم التطرق إليهن في الكتابات المناقبية،وأهم سمة تميز نسق الولاية والصّلاح سمة "النّكرة" حيث نجهل الكثير عن تاريخ الصّالحات في ظل هذا الإغفال التّاريخي،فحين تدخلت الذّاكرة الشّعبية لتنسج قصصا وحكايات عنهن. نذكر منهن لالة ستي يوجد ضريحها على قمة بجبل تلمسان والسيدة غريبة من الصّالحات العابدات يوجد ضريحها بمسجد القرآن بتلمسان.

لقد وردت ظاهرة التصوف النّسائي في المغرب الأوسط في أشعار العرفانيين منذ القرن السّابع الهجري،لكنها قليلة ضمن نصوص كتب التّاريخ والطّبقات والتصوف خلال الفترة(7-9ه) وقد نفسر ذلك بحرمة البيوتات فجاءت الرّوايات محددة رغم أنّ ابن مرزوق الخطيب أظهر لينا في الحديث عن أسماء الصّالحات من بيت المرازقة وممن ذكر أم جدّه محمد بن أبي بكر وهي زينب بنت أبي إسحاق ابراهيم بن محمّد الدلايلي،وزوجة جدّه فاطمة من بيت بني النّجار وأمها مني بنت ابن الحسين. فحين

تكتم ابن قنفد القسنطيني عن ذكر الأسماء بما في ذلك اسم والدته(**بونابي، الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين 8-9ه/14-15م (رسالة دكتوراة)**، 2008/2009، **صفحة** 400).

3.2. تجليات الممارسة الصّوفية

ويمكن تصنيف الممارسة الصّوفية ضمن:الحضور الصّوفي في النّصوص العرفانية خلال القرن 07ه/13م لدى صوفية التصوف الفلسفي في بجاية وتلمسان،ومصطلح العرفان شائع منذ القرن الثّالث الهجري، وهو شكل من أشكال التصوف ،يقوم على الإدراك العقلي وعيش الحال عيشا حقيقيا دون الدّخول في متفرعات التصوف.

ويعد أبو الحسن محمّد الحرّالي(638ه/1239م) شيخ الاتجاه الإشراقي في بجاية وتلميذه أبي محمّد عبد الحق بن الربيع البجائي 675ه/1276مفي قصيدة مطوّلة يصف فيها حالة الكشف.كما استخدم أبو زكريا يحي بن محجوبة القرشي السطيفي 677ه/1238م المرأة في وصفه لمجاهداته النّفسية أثناء الليل.كذلك وظّف عفيف الدّين التّلمساني 690ه/1291م المرأة في الشّعر العرفاني.

كما تجسدت الممارسة الصّوفية ضمن البيوتات الصوفية وخاصة بتلمسان حيث أتاح شيوخ هذه البيوتات الفرصة للمرأة للاندماج في هذا الحقل،وقد أتاح لها ذلك أيضا فرصة المحافظة على الشّريعة،والاستفادة من بعض الامتيازات(الميراث،الشهادة ،أعطيات السلاطين)(**الونشريسي**، 1981، **صفحة** 172). وخرجت المرأة للمشاركة في اجتماعات الصّوفية وحلقات الذّكر وحضور احتفالات المواسم الدّينية.وانضمت المرأة إلى دائرة الصّالحين،ومن صالحات تلمسان إحدى بنات الفقيه أبي عبد الله الكتّاني خلال العهد الموحدي وعند زواجها من الصّوفي أبي عبد الله محمّد بن أبي بكر بن مرزوق 681ه/1282م صارت على الطّريقة المدينية. وكانت فاطمة بنت أبي زيد بن النّجار زوجة أبي عبد الله محمّد بن أبي بكر بن مرزوق. ومن بيت أبي إسحاق ابراهيم التّنسي كانت أمه أم الفتح المدعوة " فتحون". ومن بيت بني الجلاّب يستم بنت الشيخ أبي علي حسين بن الجلاب،ومن بيت بني عبد العزيز الصّالحة فاطمة بنت العالم أبي عبد الله محمّد بن عبد العزيز.

ولكن تبقى مسألة التصوف النّسائي كمنظومة مكتملة المعالم تثير الجدل والسبب هو غياب إنتاج المرأة في هذا المجال باستثناء القليل كتأليف عائشة بنت الفقيه أحمد بن الحسن المديوني لكتاب "في الأدعية الصّوفية"(**التنبكتي**، 2004، **صفحة** 182).

وفي مستوى ثالث تجلّت الممارسة من خلال التصوف العملي والعرفاني،القائم على الزّهد والتقشف .وقد نجحت حضيبة والدة سعادة الرّياحي (القرن 7ه) من داخل الوسط الهلالي بمنطقة الزّاب في بلوغ أعلى مقامات العبادة والورع،وكذلك قبائل سويد التي مارست تجربة الرّباط نواحي شلف(**ابن خلدون**، 1971، **صفحة** 225، ج7).

كما لعبت المرأة دورا مهما في دعوة المجتمع إلى التصوف وتثبيت أركانه،حيث اتبعت مؤمنة التّلمسانية مع ابن قنفد أسلوب اللّين والنّصح ،فاستطاعت أن تعلمه معنى التصوف.

كما ساهمت المتصوفات في بناء المساجد والرّباطات والزوايا،وأخذت المرأة المتصوفة على عاتقها مهمّة تحفيظ القرآن الكريم ووعظ النّاس وإرشادهم. وقد ورد في نوازل الونشريسي ما يفيد بمساهمة المرأة في أبواب الصّلاح مثل تأسيس الزّوايا وحبس الأرض المزروعة حتى يقدّم قمحها للصّوفية الفقراء ليلة المولد النّبوي الشّريف.

أصبحت المرأة في المغرب الأوسط وخاصة في تلمسان من المصادر الأساسية في رواية أخبار الصّوفية والصّلحاء،فقد اعتمد بن مرزوق الخطيب في رصد أخبار ومناقب صوفية أسرته وصوفية تلمسان على مجموعة من روايات الصّالحات بدليل استخدامه لبعض العبارات الدّالة: "أخبرتني الصّالحة المباركة فاطمة بنت الشّيخ العالم أبي عبد الله محمّد بن عبد العزيز..." و"حدثتني الصّالحة عائشة بنت لكحل..." وغيرها من العبارات.

4. خاتمة

من خلال هذه الدّراسة حول مكانة المرأة ضمن الخطاب الصّوفي ونصيبها من بعض الأدوار الصوفية في المغرب الأوسط توصلنا إلى بعض النتائج:

- لا يزال حقل "المرأة والتصوف" جدير بالبحث والتقصّي سواء من أجل الكشف عن جوانب من حياة المتصوفات اللّواتي لم تأخذ حقّها من التّدوين التّاريخي، في سبيل مواجهة الاختزال المعتاد في أسماء أوجوانب معينة.

- لقد اقتصرت معظم كتب الطّبقات والأعلام في ترجمة المرأة المتصوفة على التعرّض لأحوال مجاهدتها وبعض الأقوال والأشعار،فحين تم تجاهل الأبعاد الاجتماعية والسياسية والعلمية لشخصية المرأة المتصوفة.كما اتسم تاريخ المتصوفات بالشّخصنة حيث تناوت المؤلفات شخص المتصوفة دون الحديث عن معلّميها أو تلامذتها إلا في حالات نادرة.

- استطاعت التّجربة الصّوفية أن تؤسّس نظرة جديدة للمرأة والأنوثة وأن تظفي عليها طابعا إيجابيا.كما استطاعت المرأة من خلال ممارستها الدّينية -الصوفية أن تحوز موقعا لها ضمن نسق الولاية والصّلاح.

- وجدت النّساء في التصوف مجالا رحبا لإثبات ذاتها والتحرّر من الدّور التّقليدي الذّي فرض عليها من طرف الفقهاء في العصر الوسيط والذّي أعطى -في بعض الحالات- صورة متراجعة عن الصّورة التي منحها الإسلام للمرأة،من خلال تأويلات "مجحفة" و"ضيّقة" للنص القرآني. رغم ابتعاد التصوّف في بلاد المغرب الإسلامي عن التيار الفلسفي وانضمامه في أغلب الأحيان إلى صف الفقهاء للدّفاع عن الشّريعة.

ـ المصادر والمراجع

1. ابن الزيات التّادلي، (1997)،التشوّف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العبّاس السّبتي، ط2،تحقيق: احمد توفيق، الدار البيضاء المغرب: مطبعة النّجاح الجديدة.

2. ابن خلدون عبد الرحمن محمد، (1971)،العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان، بيروت، لبنان : منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

3. ابن عربي، (1313هـ). ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق (د.ط). بيروت، لبنان: المطبعة الأنسية.

4. ابن عربي، (د.ت). الفتوحات المكية. بيروت: دار صادر.

5. ابن قنفد القسنطيني، (1995)،أنس الفقير وأعز الحقير (د.ط)،تحقيق: محمّد الفاسي، وأدولف فور، الرباط: منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي.

6. ابن مرزوق محمد التّلمساني أبي عبد الله، (2008)،المناقب المرزوقيةط1،تحقيق: سلوى الزاهري،المملكة المغربية: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

7. ابن منظور. (2000)،لسان العرب، ط4، بيروت: دار صادر.

8. أرزازي محمّد، (2016)، صورة المرأة في الخطاب الصوفي-ابن عربي نموذجا-الحوار الثقافي،مجلة الحوار الثقافي، 5(2).

9. الباديسي عبدالحق، (1993)،المقصد الشّريف والمنزع اللّطيف في التّعريف بصلحاء الرّيف، ط2،تحقيق: سعيد أعراب، الرباط: المطبعة الملكية.

10. براضة نزهة، (2008)،الأنوثة في فكر ابن عربي،ط1، بيروت: دار الساقي.

11. بن حيدة يوسف، (2011/2010)،الطرق الصوفية في الجزائر وبلاد المغرب ودورها في نشر الوعي والإخاء والتضامن الاجتماعي (رسالة الماجستير)، الجزائر: قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية جامعة سيدي بلعباس.

12. بوبريك رحال، (2007)،بركة النّساء: الدّين بصيغة المؤنث، افريقيا الشرق. الدار البيضاء.

13.بكوش فافة،دريس بن مصطفى،(2022)،قراءة في حضور المرأة ومكانتها بمجتمع المغرب الأوسط ما بين(ق07-09ه/13-15م) من خلال نوازل الونشريسي،مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال افريقيا،5(3)،296-316.

14.بونابي الطاهر، (2009/2008)،الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين 8-9ه/14-15م (رسالة دكتوراة)، الجزائر: جامعة الجزائر.

15.بونابي الطاهر، (2017)، ظاهرة التصوف النسائي في المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، مجلة البحوث التاريخية، 1(1)، 139-153.

16.البيوري أحمد، (د.ت)،في الرواية العربية، التكون والاشتغال (د.ط). الدار البيضاء: شركة المدارس.

17.التنبكتي احمد بابا، (2004)،نيل الابتهاج بتطريز الدّيباجط1،تحقيق: علي عمر، القاهرة، مصر: مكتبة الثقافة الدينية.

18.فيلالي عبد العزيز، (2002)،تلمسان في العهد الزياني (د.ط). الجزائر: دار مرقم للنشر والتوزيع.

19.نصراوي سميحة، (2011/2010)،شعرية الرّمز الصوفي في الأدب الجزائري القديم -عفيف التّلمساني أنموذجا- (مذكرة الماستر)، الجزائر: جامعة العربي بن مهيدي.

20.نويهض عادل، (1980)،معجم أعلام الجزائر، من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط2، بيروت، لبنان: مؤسسة نويهض.

21.الونشريسي، (1981)،المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء افريقية والمغرب، تحقيق:محمد حجي، وآخرون، مطبوعات الدار الإسلامي.

22..لعبيدي هارون(2017)،تبلور مفهوم المتخيل الصوفي في نظرية الخيال عند ابن عربي،مجلة حوليات جامعة قالمة للعلوم الاجتماعية والإنسانية11(1)،413-427.

كيفية الإستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA

عتيقة مصطفى، (2024)، تجليّات المرأة في المتخيّل الصّوفي -المغرب الأوسط أنموذجا-، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، المجلد 16، العدد 02، جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، الجزائر، ص ص:223-229